المحاضرة الثامنة: اختلاف المدرستين (البصرية و الكوفية) في الدرس النّحوي

نشأ النّحو بين أحضان المدرسة البصريّة التي كان لها الفضل في إنمائه و تطويره وانتهج بعدهم الكوفيون نهجهم في تقعيد القواعد ، غير أنّهم رسموا حدودا لتلك القواعد تختلف عن بعض قوانين المدرسة البصريّة و اشتهر البصريّون بالقياس و الكوفيون بالسّماع و من هنا بدا الخلاف بين المدرستين ...

ولئن نسج بعض المؤرخين حول نشأة النحو صوراً من الأخبار تنتهي إلى القول بنشأة النحو نشأة فجائية بسبب حادثة لحن سرت إلى مسمع أحد التابعين ـ أبي الأسود الدؤلي ـ من ابنته أو أخته أو جارته بل لئن ذهب الذاهبون إلى اعتبار زياد بن أبيه قد استهدف من وضعه النحو القضاء على اللحن الذي شاع أمره وفشا خطره في مملكته، فإنّه مما لا يشكُّ فيه أن تلك الأخبار بجملتها وتفاصيلها لا تخلو من أن تندرج تحت جملة الأساطير التي نسجها وأشاع أمرها القصّاص ورواة الغرائب واللطائف والنكت في دنيا الناس، وذلك لأنّه لو كانت مواجهة اللحن في اللغة هي الغاية في نشأة النحو، فإنَّ المنطق يقتضي أن ينشأ النحو في فترة مبكرة، وذلك لأنَّ اللحن قد وجد قبل حادثة تلك الجارية، بل من المتفق عليه أنَّ الإنسان في حقيقته ينشأ مع اللحن، ويمكن ملاحظة ذلك في لغة الطفل أيام الطفولة، فالمراهقة ثم الشباب.. بل لو أنَّ سبب النشأة يعود إلى تلك الحادثة، فقد كان بالأمر اليسير معالجتها كما يعالج لحن الطفل، وليس من حاجة إلى استنهاض جيشٍ بكامله في مواجهة حادثة كهذه.

إنَّ منهجيَّة المدرسة البصرية في تقعيد القواعد النحويَّة يمكن استيعابها من خلال النظر المتأمل في مصادر التقعيد التي اعتمدتها.. ويمكن تلخيصها في المصادر التالية:

أ ـ القبائل البدوية التي لم تختلط بغيرها من الأمم، وهي القبائل التي كانت تعيش في قلب الجزيرة العربية كقريش التي كانت أجود العرب انتقاء للأفصح

من الألفاظ، وقبائل العرب من قيس وأسد، وهذيل، وكنانة، وبعض الطائيين.. وتتميز هذه القبائل بالتعمق في التبدي، والالتصاق بحياة البادية، وهم أهل شيح وقيصوم وحرشة ضباب، بل أكلة يرابيع، وقد حدَّدهم الفارابي عندما قال منبهراً: «.. والذين نقلت عنهم اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم قيس وأسد، فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.. وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضريٍّ قطُّ..»[1]. فما تكلمت به هذه القبائل من لغةٍ ـ نثراً أو شعراً ـ ينبغي اتخاذها أصلا للقياس، ومصدراً للغة الفصحى، وأما ما عداها من القبائل التي جاورت الأمم الأخرى، واختلطت بها، وسكنت البراري، فإنَّ لغتها لا يحتج بها، ولا يصلح للقياس عليها البتة. وبناء على ذلك، فلا تؤخذ اللغة من لخم ولا من جذام لمجاورتها أهل مصر، ولا من قضاعة، أو غسان، أو إي اد لمجاورتها أهل الشام، ولا من تغلب، أو بكر لمجاورتها النبط والفرس الخ...[2]

القرآن الكريم و قراءاته:

ليس صحيحاً ما يشاع عن مدرسة البصرة من عدم احتجاجها بالقرآن الكريم، وعدم اتخاذها قراءاتها ـ جملةً وتفصيلاً ـ أصلاً من أصول القياس، ولكن الصحيح أنَّ استقراء هذه المدرسة لقراءات القرآن الكريم المتعددة كان ناقصاً نقصاً واضحاً، مما جعل عدداً من الناس يخيَّل إليهم أنهم لا يعتمدون القرآن الكريم أساساً للتقعيد والتأصيل، بل الأسوأ من ذلك أنَّ كثيرا من رجالات هذه

---

[1] انظر: السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو بتقديم وضبط وتعليق د. أحمد الحمصي، و د. محمد قاسم (جروس برس طبعة أولى 1988م) ص 24

[2] يروي السيوطي في الاقتراح ص 129 عن الأندلسي أنه قال في «شرح المفصل»: الكوفيُّون لو سمعوا بيتاً واحداً، فيه جواز شيءٍ مخالفٍ للأصول جعلوه أصلاً، وبوّبوا عليه بخلاف البصريين.. ومما افتخر به البصريون على الكوفيين أن قالوا: نحن نأخذ اللغة من حرشة الضبا وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ..» اهـ

المدرسة ربطوا الاحتجاج بالقراءات القرآنية بموافقتها شعراً أو كلاما من أشعار وكلام القبائل البدوية السالف ذكرها، فإذا لـم يكن للقراءة شاهدٌ من شعر شاعرٍ جاهلي أو كلامٍ منسوبٍ إلى أولئك القبائل المتعمقة في التبدي لا يلفت إليها، ولا يحتج بها البتة، بل لا يشك في ضعفها وشذوذها بغض النظر عن سندها الذي قد يكون متواتراً أو مستفيضاً عند القراء.

الحديث النبوي والتقعيد النحوي: وأما الحديث النبويُّ الشريف، فقد استبعده نحاة البصرة ـ عن بكرة أبيهم ـ جملةً وتفصيلاً من دائرة الاحتجاج والاستشهاد به، واختلقوا لذلك عذراً يعوزه الدقة والسلامة، والسداد، فقالوا إنَّ من الثابت كون الحديث النبويِّ يروى بالمعنى حيناً، وباللفظ حيناً آخر، ونظراً لتعذُّر معرفة المرويّ منه بالمعنى من المرويِّ باللفظ تجاوزا الاحتجاج بأي حديث نبوي مطلقاً تغليباً لجانب الرواية بالمعنى على جانب الرواية باللفظ، وفي ذلك يقول أبو الحسن بن الضائع في شرح الجمل معلِّلاً ومدافعاً عن نحاة البصرة ومن سار على نهجهم في في هذا الموضوع: «.. تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندي في ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات فصيح اللغة كلام النبي ـ صلى اللـه عليه وسلم ـ لأنه أفصح العرب..»[3]. وأما أبو حيان، فقد دافع وعلَّل عدم الاحتجاج بالحديث النبوي قائلاً: «..إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أنَّ ذلك لفظ رسول اللـه ـ صلى اللـه عليه وسلم ـ إذْ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلِّية، وإنما كان ذلك لأمرين: أحدهما أنَّ الرواة جوَّزوا النقل بالمعنى.. الأمر الثاني أنه وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث، لأنَّ كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا

---

[3] انظر: البغدادي، خزانة الأدب (المطبعة السلفية 1347هـ) ج1 ص 23

يعلمون ذلك...» [4]

إذاً، خلاصة القول هي أنَّ مدرسة البصرة اكتفت باعتماد لغة القبائل البدوية غير المتاخمة للأمم الأجنبية ـ نثراً وشعراً ـ مصدراً للقياس كما اعتمدت اعتماداً صوريّاً على صريح النقل من القرآن الكريم الذي يشهد له شعر أو كلام من لغة القبائل البدويَّة غير المختلطة بالأمم الأجنبية. وأما الحديث النبوي، فقد تجاوزوه، ورفضوا الاحتجاج به والتقعيد عليه. وبناءعلى ما سبق، فإنه يمكننا القول بأنَّ لقياس المدرسة البصريَّة في واقع أمرها مصدرين: أحدهما مصدر أصيل ووحيد وهو لغة القبائل البدوية التي لم تختلط بالأمم الأجنبية، وأما الآخر، فهو ثانويٌّ، وهو القرآن الكريم وبتعبير آخر بعض قراءات القرآن التي يشهد لها شعر أو كلام منثور من لغة تلك القبائل البدوية الخلّص.

---

[4] انظر: مجلة مجمع اللغة العربية العدد 3ص ص199 بحث للشيخ محمد الخضر الحسين بعنوان «الاستشهاد بالحديث». نقلا من كتاب في أصول النحو للأفغاني، ص47 -48